

(١)

فقه بناء الدول

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الْقَائِلِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ يَحْسَنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
وَبَعْدُ :

فلا شك أن جميع الأمم والشعوب تسعى إلى بناء دولة قوية مستقرة ، بكل ما تملك من طاقاتها ومواردها ، وذلك لتحقيق أهدافها ، وبناء الدول علم يحتاج إلى خبرة ودراية وإلمام بأحوالها والتحديات التي تواجهها ، وشتان بين فقه الأفراد والجماعات وفقه بناء الدول وإرادتها في عالم سريع التحول والتغير لا يعرف سوى لغة التحالفات والتكتلات السياسية والاقتصادية والثقافية ، وتحكمه قواعد وقوانين ومعاهدات دولية لا يمكن لعاقل فضلاً عن دولة تجاهلها أو عدم التعامل معها أو عدم التكيف مع ما يفرضه الواقع الراهن .

فالدولة حِمَايَةٌ ، الدَّوْلَةُ أَمَانٌ ، الدَّوْلَةُ ثِقَةٌ ، الدَّوْلَةُ اسْتِقْرَارٌ ، الدَّوْلَةُ نِظَامٌ ، الدَّوْلَةُ مُؤَسَّسَاتٌ ، الدَّوْلَةُ بِنَاءٌ فِكْرِيٌّ وَسِيَاسِيٌّ وَاقْتِصَادِيٌّ وَتَنْظِيمِيٌّ وَتَشْرِيْعِيٌّ ، وَبِدُونِ الدَّوْلَةِ لَا يُوجَدُ إِلَّا الْفَوْضَى .

ومن أهم عوامل بناء الدول : تقوية مؤسسات الدولة الوطنية ، وإعلاء دولة القانون ، دولة الدستور ، دولة العدل ، وذلك يتطلب احترام الأفراد لقوانين الدولة وأنظمتها ، والالتزام بقواعد المرور وضوابطه ، ولا يخالفها بالسير عكس الاتجاه ، أو بزيادة السرعة ، أو غير ذلك من الأمور التي تعتبر تعدياً على حقوق الطريق ، وعلى حقوق الناس ، والتي قد تتسبب في إزهاق روحه أو أرواح غيره ، أو إصابتهم ، أو

(٢)

ترويعهم ، والله (عز وجل) يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) .

فحفظ النظام واحترامه ، يسهم في بناء دولة قوية مستقرة ؛ إذ لا بد لكل مجتمع من قواعد وقوانين تضبط سلوك أفراده ، وتحفظ للإنسان حقوقه ، ويلزم فيها بأداء ما عليه من واجبات ، وبدون احترام النظام ، وإعلاء دولة القانون لا تستقر دول ولا تتحقق عدالة .

إن احترام القوانين والالتزام بها يُعدُّ من أهم عوامل بناء الدولة ، فالقانون حماية لكل المواطنين ، إذ لا يتصور بقاء المجتمع مستقرًا دون احترام القوانين ، فلا بد وأن يتحمل كل فرد فيه مسؤوليته لتحقيق المصلحة العامة التي يحصد ثمارها المجتمع كله ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . .) ، فالمجتمع المسئول مجتمع متماسك ، يعرف كل واحد فيه دوره ، ويحترم غيره ، فما أوجبنا إلى احترام النظام والتزام القوانين ، ومراعاة حقوق الآخرين ، حتى يسود العدل ، وينعم المجتمع كله بالأمن والأمان والاستقرار، ونرى بلادنا في المكانة التي تليق بها بين الأمم .

ومن عوامل بناء الدول : البناء الاقتصادي ، فهو من أهم دعائم الدولة الأساسية التي لا تقوم ولا تُبنى إلا بها ، فالالاقتصاد القوي يمكن الدول من الوفاء بالتزاماتها المحلية والدولية ، وتوفير حياة كريمة لأبنائها ، وحين يضعف الاقتصاد ينتشر الفقر والمرض ، وتضطرب الحياة ، وتفسد الأخلاق ، وتكثر الجرائم ، وتكون الفرصة واسعة أمام الأعداء المتربصين بالدول ، العاملين على إسقاطها وإدخالها في فوضى لا تنتهي ،

فالأمم التي لا تنتج مقوماتها الأساسية ، وتكون عالة على غيرها لا تملك كلمتها ولا استقلال قرارها .

إن الاقتصاد القوي للدولة يمكنها من العيش بكرامة وعزة بين الدول ؛ لذلك عني الإسلام عناية كبيرة بالمال ؛ لأنه عصب الحياة ، ولا يمكن أن تسير إلا به .

وبناء الدول اقتصاديا يتطلب إتقان العمل وزيادة الإنتاج ، فلا تنهض أي أمة ، أو مؤسسة ، أو أسرة إلا بالعمل والإتقان ، وليس المطلوب مجرد العمل أو زيادته ، بل لا بد من الإتقان مع زيادة الإنتاج الذي يكون له مردود اقتصادي على جميع أفراد الدولة ، وقد حثنا ربنا سبحانه وتعالى على العمل والسعي في الأرض فقال : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، وقال سبحانه : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} ، وقد عدَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضل ما أكل العبد ما كان من سعيه وكده ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَمْسَى كَالَّذِي مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ) .

وفي الدعوة إلى الإنتاج يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) ، فبالعمل والإنتاج تعمر الأرض وتبنى الدول ، ويحفظ المرء مروءته وكرامته .

ومن عوامل بناء الدول : بناء الوعي الثقافي ، والديني ، والفكري ، والعلمي ، فإن غياب الوعي أو ضعفه لا يمكن أن يسهم في بناء دولة قوية مستقرة ، ومن ثم لا بد أن يرتفع الوعي لدى أفراد المجتمع ، ويعرف كل منهم واجباته وحقوقه .

(٤)

ويتمثل ذلك في تشكيل الوعي والوجدان والسلوك لأفراد الأمة جميعًا ، من خلال التربية الأخلاقية ، والثقافة النافعة ، ومواجهة الجهل ، لذا يجب على جميع مؤسسات الدولة أن تتكاتف من أجل بناء الوعي الثقافي ، والديني ، والفكري ، والعلمي ، الذي يمكن الناس من إدراك حجم التحديات لمواجهتها ومجابتها ، ومواجهة الشائعات وتفنيدها ووأدها في مهدها ، وَعَدَمِ الانْسِيَاقِ وَرَاءَ الْأَرَاغِفِ وَالْأَكَاذِيبِ وَالشَّائِعَاتِ الْمُعْرِضَةِ ، الَّتِي تُحَاوِلُ أَنْ تُنَالَ مِنْ بِلَدِنَا ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}.

كما يجب أن نكون في يقظة ووعي ، وأن نتعظ بغيرنا ، وأن نستفيد من تجارب الحياة وخبراتها ، حيث يقول سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يُلْدَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) ، ولنعلم أن بناء الدولة والحفاظ عليها أمانة في أعناقنا جميعًا ، كل في مجاله وميدانه ، مع تأكيدنا أن البناء لا يتم إلا بالأخذ على يد الهدامين ، يقول الشاعر :

مَتَى يَبْلُغُ الْبُيَّانُ يَوْمًا تَمَامَهُ *** إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرِكَ يَهْدِمُ

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْصُرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرْهُ ؟ قَالَ : تَحْجِرْهُ ، أَوْ تَمْنَعْهُ ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ) ، فعلى كل منا في نطاق مسؤوليته أن يأخذ على يد من يخرج على الصف الوطني أو يضر بمصلحة الوطن ، فيأخذ الوالد على يد ولده ، والأخ على يد أخيه ، والصديق على يد صديقه ، ولا نكون سلبيين غير عالمين بما يدور حولنا ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَكُونُوا إِمَّةً ، تَقُولُونَ : إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا

(٥)

تَظْلِمُوا) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا) .

فلا يكفي أن يكون الإنسان صالحاً في ذاته ، إنما فقه المرحلة يتطلب تجاوز مرحلة الإصلاح إلى مرحلة الإصلاح ، حيث يقول سبحانه : {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، ويقول (عز وجل) : {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ}، فالإصلاح طريق الأنبياء والمرسلين ، وبه يتحقق بناء الدول ، والحفاظ على وحدتها وقوتها وتماسكها وتربطها ، لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء ، لا نزاع ولا شقاق ، ولا عنف ولا إرهاب ، ولا إفساد في الأرض بالقتل والتخريب .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

ومن عوامل بناء الدولة والحفاظ عليها : البناء الاجتماعي ، فقد حرص الإسلام على قوة الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بين أفراد المجتمع ، والتكاتف

(٦)

والتراحم بين أبناء المجتمع الواحد ، وعدم إلحاق الضرر بالآخرين ، انطلاقاً من قوله (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ). وقال (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارَهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ) .

ومن مظاهر البناء الاجتماعي : التماسك الأسري ، الذي يحتفظ للأسرة بكيانها ، فالأسرة هي اللبنة الأولى التي يتكون فيها صرح المجتمع ، وهي التي تتولى حماية النشء ورعايته وتنمية أجساده وعقله ، وفي ظلها تتلاقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ، وفي أحضان الأسرة المتماسكة تنمو الخلال الطيبة ، وتنشأ الخصال الكريمة، وتسود المودة ، غير أن الأمر لا يقف عند ذلك ، فإن على الأسرة مسؤولية تجاه أبنائها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ)، وأي ضياع أكبر من أن تترك أبنائك وفلذات أكبادك عرضة للأفكار الضالة أو الجماعات الضالة دون أن تقوم بواجبك نحوهم في تنمية وعيهم بالمخاطر والتحديات المحيطة بنا ، كما نذكرهم دائماً بواجبهم تجاه وطنهم ، فحب الوطن يورث ، يقول شوقي :

نقوم على الحماية ما حيننا *** ونعهد بالتمام إلى بنينا

وفيك نموت مصر كما حيننا *** ويبقى وجهك المفدى حياً

ومن عوامل بناء الدولة : إعلاء القيم الأخلاقية والسلوكية ، فالأمم والحضارات التي لا تبني على القيم والأخلاق أمم هشة ، وحضارات أكثر هشاشة ، بل إنها لتحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وعوامل قيامها ، فبالأخلاق يرتقي المسلم في درجات

(٧)

الإيمان ، وتثقل موازينه عند الميزان ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيَّ)، ولما سئل (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ : (تَقْوَى اللَّهِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ) ، وعد رسول الله الأخلاق معيار كمال الإيمان أو نقصه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ...) .

إن الأخلاق تعصم صاحبها من الفواحش ، ومن الكلمة الخبيثة الهدامة ، حيث يقول سبحانه : {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} .

**نسأل الله عز وجل أن يهدينا لأحسن الأخلاق وطيب القول
وأن يديم علينا نعمة الأمن والأمان والاستقرار
وأن يحفظ مصر وأهلها وسائر بلاد العالمين من كل سوء ومكروه**